

العيد بين المتنبي وشوقي

✍ ... كانت ذاكرتنا الجماعية موزعة بين شقين: أحدهما يشغله النص المقدس بأجوائه وأصدائه، بإعجازه وقسريته؛ والآخر تتسرب إليه لوامع الشعر البليغ بحكمته وفتنته، بحلاوة بشريته، ولأن هذه الذاكرة توشك على الارتجاج والخض، فإن مكانة الشعر تتقلص في وعى ابن اليوم، ومحفوظه يتضاءل، ليس له سدة يقتاتون به ويقاثلون عليه، ولا أعرف إن كانت الحياة تطاق بدون الشعر الجميل الذي يورق في الكلمات المبدعة، ويمارس فيه الإنسان حريته في إعادة خلق اللغة وتثبيت صورة الوجود. وربما كانت مناسبات الأعياد مؤاتية لمراجعة موقف شاعرين عظيمين في العربية: أحدهما جسد حلم العصور القديمة في البطولة والعزة، ومثل عالمها بكل كبريائه وأخطائه؛ والثاني افتتح العصر الحديث بقصائده الإعلامية، وأشعاره الجماعية. وهما

أبو الطيب المتنبي (٣٠٣-٣٥٤هـ) وأحمد شوقي (١٨٧٠-١٩٣٢م)،
وبينهما قرابة ألف عام من خبرة الإنسان وأحداث التاريخ.

أما المتنبي فلا يكاد مثقف عربي يمر أمامه ذكر العيد حتى ينشد
مطلع قصيدته التي نفث بها عن مواجده وإحباطاته عند هروبه
من مصر منتقما من أميرها كافور الإخشيدي ولاعنا المصريين
المذعنين لحكمه ، وربما كان من الأنسب لذكرى العيد أن تقتصر
على الجزء الأول من القصيدة ونرجى مناقشة المتنبي في أشعاره
العرفية والعنصرية إلى وقت آخر؛ فحسبنا ما تحفل به الحياة
العربية من تنابد وشقاق وفتن متقدة. ولنتأمل أبيات الحكمة التي
صارت أمثالا تعبر عن مكنون الوجدان الجماعي وترصد طريقة
رؤيته للزمن وفهمه لحركة الوجود. يقول المتنبي في هذا المطلع
الشهير:

عيد بأية حال عدت يا عيد بما مضى أم لأمر فيك تجديد
أما الأحبة فالبيداء دونهم فليت دونك بيذا دونها بيد
ولأن الشعر هو الذي يجدد شباب اللغة ويعيد إليها الحيوية
والنشاط، بعد أن تتجمد على الأفواه وتحف عن الصفحات، فهو
الذي يكتشف بواعث الكلمات وأسباب تشكيلها. وكلمة العيد
تأتي من جذر "العود" لتشير إلى دورة الزمن ورجوعه في حساب

المواقيت إلى نقطة محددة، وهو عدد قد يكون حميدا إن جاء بخير، وقد يكون أليما إن أذن بتكرار المكروه. هنا يأتي التساؤل الشعري عن أي الأحوال عاد بها العيد: أيجر ذيول الماضي بخيبته وإخفاقه، أم يحمل معه وعدا بالتغيير والتجديد؟ وكأن الزمن هو الذي يصنع أقدارنا ويشكل مصائرنا، وكأننا مجرد مشاهدين لمأساة الحياة وملهاتها، لكن حلاوة النظم لا تأتي من تساؤل يعرف الشاعر والقارئ - طبقا لتجربة كل منهما - إجابته، بل تأتي أساسا من هذا العبث الجميل بالكلمة وتكرارها، ثم من هذه الصياغة اللعوب بحروف العيد واكتشاف معناها الأصلي، ثم من هذا التقابل الطريف بين ما يمضى وما يجد في حركة الزمن، وما يقع بينهما من رجعة تتأرجح بين العودة إلى نقطة الانطلاق أو التجاوز إلى مختلف الآفاق.

وإذا كان أنضر ما في الشعر هو قدرته على أن يحتفظ للإنسان بطزاجة عواطفه ويبعث الحرارة في دقات قلبه فإن الحديث عن الأحباب، خاصة عندما يبتعد الإنسان عنهم، يصبح مصدر الروح ومقياس الفرح. وها هو أبو الطيب يرى أحبابه بعيدين جدا عنه، تفصله عنهم يبداء رهيبة، تجعله يقذف العيد بدعوة أشد رهبة، كي يمعن في البعد. وهنا تسهم الصياغة في التشكيل المكاني

لزمان، فهو إذ لا يظفر بقرب أحبابه في العيد، لا يرى له معنى ولا فرحة بدونهم، فيتمنى للعيد أن يشتط به المكان مسافة متطاولة تجمعها كلمة "بيد" وهي على وجازتها المقابل الدلالي والوجداني للعيد المقفر من الأحباب. وليس لنا أن نسائل الشاعر عن كنه أحبابه، فله أن يحب ما شاء، وكل يغني على ليلاه، إذ إن هذا الإبهام المجازي الجميل هو الذي يسمح للشعر أن يصدر عن تجربة فردية فيشبع الحس الجمالي والحيوي لدى أفراد مختلفين تماما عما كان عليه الشاعر من قبل دون أن يفقد هامشه من الصدق الحقيقي، غير أن المتنبي لا يتركنا ننعم بهذا الإبهام، فسرعان ما يبادر إلى نفى أن يكون له أحباب من النساء أو الرجال، فهو طالب مجد فحسب عندما يقول:

لولا العلى لم تجب بي ما أجوب بها

وجناء حرف ولا جرداء قيدود

وكان أطيّب من سيفي معانقة

أشباه رونقه الغيد الأماليد

لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي

شيئا تيمه عين ولا جيد

وأرجو ألا ينزعج القارئ غير المدرب من الشطر الثاني في البيت الأول فهو يصف ناقته الشديدة الضامرة بقلّة الشعر وطول الرقبة، ولو كان المتنبي يركب السيارة أو الطائرة لما فاجأنا أوصافهما حيثنّذ؛ فهذه بقايا العصور القديمة، وما يبدو لنا الآن خشنا متكلّسا بعيدا عن الحياة قد كان شديد الحيوية والمقاربة للتجربة اليومية في زمانه. وميزة الشعر أنه يؤسّس الذاكرة الإنسانية، يضيف إلى تجربة اليوم مظاهر تجارب الأمس ورحيق خبرتها، ويلعب دورا بالغ الأهمية في صناعة المخيال وتعزيز قدراته، ولا يقتصر ذلك على معرفة الحفريات القديمة في اللغة والصورة، بل يرتبط بشكل أساسي في تكثيف كفاءة هذا المخيال لابتداع أشكال جديدة في المستقبل. فالذي ينغمس كليا في تجربة اليوم دون تمثيل عميق لما سبقها من تجارب لا يستطيع أن يستشرف أفقا جديدة في خبرات المادة والروح، بالفن أو العلم، فكلاهما ينطلق من بوتقة الإبداع. وإذا كانت الناقّة وأوصافها قد أشعرتنا بحركة التاريخ فإن المرأة ومفاتنها في الجيد والقوام والعين لا تزال تصيب قلب الرجل وتفرى كبده، إن لم يكن مثلاً المتنبي قد تصحّر وتصحّر وتبتل لشهوات المجد السياسي والأدبي حتى يقول لنا:

يا ساقبي، أخمر في كؤوسكم

أم في كؤوسهما هم وتسهيّد؟

أصخرة أنا؟ مالي لا تحركني

هذي المدام ولا هذي الأغاريد؟

إذا أردت كملت اللون صافية

وجدتها وحبيب النفس مفقود

ماذا لقيت من الدنيا وأعجبه

أني بما أنا شاك منه محسود

أمسيت أروح مثر خازنا ويدا

أنا الغني وأموالي المواعيد

ولا بد لمن يريد أن ينعم بشعرية هذه الأبيات أن يتلوها عدة مرات ، فكل ما فيها عجيب ومبدع: من النداء والسؤال، إلى الشرط والخبر، وكلها تصب في تقنية تعبيرية درامية هي قوة المفارقة ولذعة السخرية ، فهو يتجه بالخطاب إلى السقاة وهما اثنان في تقاليد الشعرية الميثولوجية، يتساءل عما في كؤوسهما: أهو خمر تجلب الفرحة والسعادة كما هو شأن الشراب عند متذوقيه، أم أن هذه الكؤوس مترعة بالغم والغم كما تخبره بذلك محاولاته في السلوى والنسيان؟

مفارقة الخمر والحزن هي العلامة الأولى، يتلوها تساؤل غريب
يبتلع في جوفه مقولة شاعر أقدم "لو أن الفتى حجر" بتحوير
طريف: فإذا كانت الخمر لا تقوى على تحريكه، وإذا كانت الأغاني
والأغاريذ لا تطربه وهو الشاعر، فهل قد من حجر؟ لكن السبب
الحقيقي لا يكمن في طبيعته الجامدة، بقدر ما يتمثل في الزمن
الخثرون، إذا أعطى بيد سلب أعز شيء باليد الأخرى؛ فهو إذا
وجد صافي الشراب افتقد وجه حبيب النفس، وتتجلى سخرية
الأقدار عبر هذه المفارقة الثانية.

ويتصاعد إيقاع التضاد العجيب ليشمل موقف المتنبي كله من
الحياة وما لقي منها، فهو شاعر العربية الأكبر، وهو في نظر نفسه،
وفي تقدير الآخرين، جدير بأن يلقي من التكريم والعطاء والمجد
ما يكافئ هذه المكانة، غير أن ما تجره عليه من أحقاد وضغائن،
ومن حسد ومكائد، تجعله يشكو حظه وينعي عبقريته، لكن
العجيب أنه يدمج القول ويصوغه في عبارة مقطرة مدهشة "أني
بما أنا شاك منه محسود"؛ وهو ما يجعله أيضا نموذجا لنجاعة اللغة
ونجاحها في بلورة تجارب الحياة. ويأتي البيت الأخير الذي يعلن
فيه فداحة ثرائه وهباء حصيلته ليمثل ذروة المفارقة الكلية، وهي

التي تجسد معنى العيد لديه وقد سلبت منه البهجة، وغاب عنه الأحباب، ولم يطب فيه شراب، ففقد دلالة وأصبح جديراً بهذا الاستنكار الأولي "عيد بأية حال عدت يا عيد" في تلك الرؤية النقدية للحياة والمجتمع والتاريخ.

مقاربة شوقي للعيد

كان شوقي شديد الولاء للمتنبي، دائم القراءة فيه منذ مطلع شبابه، ويشهد الأمير شكيب أرسلان أنه لقيه أثناء بعثته في باريس يتأبط ديوان أبي الطيب المتنبي الذي يصحبه إلى كل مكان، ومع أن ولعه قد توزع بعد ذلك على بقية الجذود من كبار الشعراء فإن عشقه الأول قد ظل يدور في فلك المتنبي، ولن نلبث عندما نقرأ إحدى القطعتين اللتين كتبهما شوقي عن العيد أن نتبين ذلك بوضوح؛ فهو يقول في قصيدته بعنوان "الهلال":

سنون تعاد ودهر يعيد

لعمرك ما في الليالي جديد

أضياء لآدم هذا الهلال

فكيف نقول: الهلال الوليد

نعد عليه الزمان القريب
ويحصى علينا الزمان البعيد
على صفحته حديث "القرى"
وأيام "عاد" ودنيا "ثمود"
و"طيبة" أهلة بالملوك
و"طيبة" مقفرة بالصعيد
يزول ببعض سناه الصفا
ويبقى ببعض سناه الحديد
ومن عجب وهو جد الليالي
بيد الليالي فيما يبيد

ومع أن المقطوعة ليست من قبيل المعارضة الصريحة - فهي ذات إيقاع مختلف، ودال قافيتها ساكنة - غير أنها تصدر عن روح مشبع بالذخيرة العتيقة لشعر المتنبي. فهي تتوقف عند جذر "العود" أيضا، وتحكم بأن الليالي - وهي تلد العجائب - لا تأق حقيقة بجديد، ثم ترصد حدقة شوقي الحساسة مشهد هلال الشهر الوليد في العيد كي تخلص منه إلى درس في الطبيعة

والتاريخ، وهما دائماً مصدر إلهامه وينبوع شعريته على ما صرح به في مقدمة شوقياته وأكده في كل إبداعه. فهذه الطبيعة هى التى صحبت الإنسان منذ آدم عبر القرون والاماد، وهى التى تجعل حسه التاريخى متقددا ووعيه الإنسانى مستوفزا شديد الانتباه لمتغيرات الأحداث. هنا تقوم المفارقة بين أطراف مختلفة، هى الزمن من ناحية والمكان والأحداث من ناحية أخرى ، فالهلال الذى يتراءى طفلا قد شهد فى عمره الطويل من عجائب الدول والمخلوقات ما لا يمكن حصره، وذاكرة الشاعر تسترجع مخزونها التراثى فى أخبار الأوائل، وتبعث مشاهد التاريخ المكتشف حديثا فى طيبة التى نطقت حجارتها أوائل هذا القرن فقط وحكت من أخبار الحضارة الفرعونية ما لم يحكه كتاب من قبل.

تشف الأبيات إذن عن هذه الحكمة الجديدة لتضيف إلى سطور الحكمة القديمة ، لكن سهولة النظم عند شوقي لا تبلغ فى إعجاز الصياغة وقوة التعبير مبلغ ما رأيناه عند المتنبى، وإن أفادت من تقنياته ذاتها فى التقابل والتضاد وتوظيف المفارقات اللغوية؛ إذ يمضي قائلا:

يقولون يا عام قد عدت لي

فيا ليت شعري بماذا تعود؟

لقد كنت لي أمس ما لم أرد
فهل أنت لي اليوم ما أريد
ومن صابر الدهر صبري له
شكا في الثلاثين شكوى "ليد"
ظمئت ومثلي بري أحق
كأنني "الحسين" ودهري "يزيد"
تغايبت حتى صحبت الجهول

وداريت حتى صحبت الحسود
وهنا نرى مركبة المتنبي وهي تجر شوقي وراءها لا يستطيع
فكاكا منها، مهما حاول أن يستحضر لبيد وشكواه من طول
العمر، ويوظف قصة الحسين ومصرعه على يد جيوش يزيد بن
معاوية. لقد أحاطت به كلمات المتنبي فطاردت عبارته، فإذا ظن
نفسه قد اقتنص شيئاً جديداً لم يجد في كفه غير هذا الهواء الذي
يعبق بعطر الأجداد الأحباب.

بيد أن عيدية شوقي الحقيقية هي تلك القصيدة الأخرى التي
جعل عنوانها "رمضان ولي" واجترح فيها الكشف عن وجهه

الصحيح في الدين والحكمة والوطنية ، ومع أنه لم يعتمد الرد على أبي الطيب في إهانته لولاية مصر وغمزه لأخلاق أهلها إلا أنه يبدو كما لو كان ينتصف لقومه ويثأر من شائنيهم، كما ينتصف للخمير التي قتلها المتنبي وأنكر فاعليتها في مغالبة أحزانه؛ يقول شوقي:

رمضان ولى، هاتها يا ساقى مشتاقة تسعى إلى مشتاق
ما كان أكثره على ألفها وأقله في طاعة الخلاق
الله غفار الذنوب جميعا إن كان ثم من الذنوب بواقى
بالأمس قد كنا سجينى طاعة واليوم من العيد بالإطلاق

هنا يعود شيطان الشعر لشوقي فلا يرى في العيد معناه اللغوي ولا دلالته على مرور الأيام مثلما فعل المتنبي من قبل. لا يهمه إلا أن رمضان قد انقضى، وأذن بتحرره من قيود السلوك وآداب الصيام ، وهو عاشق قد اشتد شوقه إلى محبوبه وطال انتظار محبوبه له؛ فهو جذل بمضى رمضان، متلهف على الشراب، لكنه قد استرد عافيته الشعرية في الصياغة البليغة: فالتقابل بين "ولى" و"هات"، وخلم الشوق في الشطر الثاني على الخمر التى تسعى للقاء حبيبها، والتضاد بين الأكثر والأقل، والأمل في غفران

الغفار، كل ذلك يجعل التحرر الأخلاقي في الأبيات نظير التحرر الإبداعي، ويضفي على العيد معنى لم يخطر ببال أبي الطيب المحزون، وهو معنى الانطلاق والتحرر من القيود.

ضحكت إلي من السرور ولم تزل

بنت الكروم كريمة الأعراق

هات اسقنيها غير ذات عواقب

حتى نراع لصيحة الصفاق

صرفا مسلطة الشعاع كأنها

من وجنتيك تدار والأحداق

حمراء أو صفراء، إن كريمها

كالغيد، كل مليحة بمذاق

وحذار من دمها الزكي تريقه

يكفيك - يا قاسي - دم العشاق

لا تسقني إلا دهاقا، إنني

أسقى بكأس في الهموم دهاق

فلعل سلطان المدامة مخرجي

من عالم لم يحو غير نفاق

ومن الطريف أن الثقافة العربية قد احتفلت بالخمريات كما لم تحتفل بها أية ثقافة أخرى ، فهي باب عريض في الشعر بالغ الأهمية والثراء ، وبرع فيه كبار المبدعين ، وتخصص منهم أبو نواس بديوان كامل ، واتخذ منه الشعراء الصوفيون مصدرا للرموز والمجازات ، وظلت القصائد التي تراق لبنت الكروم مصدرا لفتنة الشعر وجمال التصوير . وتأق هذه الأبيات لتشهد لشوقي بقوة الصياغة وحلاوة الأداء ، فهو عندما يعدد أشكال الخمر وألوانها يقرنها بصنوف الجمال الأنثوي للغيد الحسان ، "كل مليحة بمذاق" ؛ وهو عندما يحذر ساقيه من سكبها هدرا يناديه برقة قاهرية عجيبة تذكرك بالكلمات التي ستشدها أم كلثوم فيما بعد ، "يكفيك يا قاسى دم العشاق" وهو عندما يطلب من الكؤوس أشدها ابتلاء "الدهاق" لا ينسى أن يعادل بها جرعاته من الهم والحزن . لكنه لا يمضى في إثر المتنبى ولا يكرر معادلتة ، بل يقدم رؤيته الخاصة لعالم تضحك فيه المدام سرورا ، وتحلوه به الأيام بمذاقها المتفرد المعشوق ، ويتغلب فيه سلطان المدامة على مرارة أخلاق النفاق التي تحرم الإنسان لذة الصدق ومتعة الحياة ، غير

أن الأبيات التالية هي التي تتولى الكشف عن معشوق شوقي الحقيقي:

وطني أسفت عليك في عيد الملا
وبكيت من وجد ومن إشفاق
لا عيـد لي حتـى أراك بأمة
شـاء راوية من الأخلاق
ذهب الكرام الجامعون لأمرهم
وبقيت في خلف بغير خلاق
أيظل بعضهم لبعض خاذل
ويقال: شعب في الحضارة راق
وإذا أراد الله إشقاء القرى

جعل الهداة بهادعة شقاق

وأبرز ما يقابلنا في هذا المقطع هو تحويل العام إلى خاص، تحويل الوطن إلى ياء المتكلم، وياء القارئ أيضاً. ويتزامن هذا مع حركة مضادة تتمثل في تحويل العيد من شيء شخصي يشعر به كل فرد على طريقته إلى أمر وطني عام يتمثل في ارتقاء أوضاع الأمة السياسية والأخلاقية، ومع أن قصائد شوقي غير مؤرخة للأسف

- على سهولة ذلك لتوفر المصادر - فإننا نتوقع أن هذه المقطوعة قيلت في فترة احتدام الخلاف بين الأحزاب في مصر، وهو ما أوشك أن يهدد مصير القضية الأساسية وهى جلاء المحتل ؛ فقد تصور الناس أن هذا الخلاف - وهو علامة ديموقراطية سليمة - يتنافى مع مقتضيات وحدة الرأي في القضايا المصرية ، ولا بد أيضا أن نلاحظ بعض الضعف الظاهر في البيت الثالث حيث يحاكي شوقي قول الشاعر القديم:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم

وبقيت في خلف كجلد الأجر

ولا بد أيضا أن نلاحظ طابع الحكمة المفتعل في البيت الأخير، حيث يصبح مصير القرى الشقى منوطا بتحول دعاة الوطنية إلى مصدر للشقاق. ومهما كان الطابع الدلالي لهذه الأبيات ماثرا للنقاش والجدل فإن مستواها الشعري ينبئ عن قدرة تعبيرية فائقة، يحرك بها الشاعر عواطف قرائه، ويبلور رؤيتهم للخطة السياسية التى يعيشونها، مزاجا بشكل متوازن بين موقفه الفردي ومقتضيات التعبير عن الوجدان الجماعي في لحظة تاريخية محددة.